نصوص قصصية

مَدائِنُ البَدء



ناصر الحلواني

مَدَائِنُ البَدْءِ

مدائن البدء

نصوص قصصية

المؤلف: ناصر الحلواني

الطبعة الثانية (إلكترونية)2019

رقم الإيداع: 2514 / 89

تصميم الغلاف: ناصر الحلواني

مَدَائِنُ البَدْءِ

نصوص قصصية

ناصر الحلواني

إلى

ابنتي سلمى

لغة الوهج الجائي عبر زمان الوحشة

جدي لأمي

شيخ الحكايات الآتي من جنوب القلب

مخضبا بطين الخرافة الحقيقة

تشاكيل أولية

لتكن البداية تساؤلا، يجيء كأسطورة تقبل كل التفاسير، يستغرق كل الإجابات الممكنة، يأبى على التحدد.

هل ثمة نهاية حقيقية، يقين مطلق؟ أم إن النهاية الأولى بداية أولى في الآن ذاته؟ لكن كذلك ـ ربما ـ تلك الكتابة؛ سعي إلى الجوهري، إلى وهلات التكثف الإنساني، فيما ترصده من حالات أو مواقف، قد تتجاوز قليلاً ـ أو كثيراً ـ أساليب الكتابة القصصية المعتادة والمتوقعة، وقد تقترب، بشكل أو بآخر، من أساليب

الكتابة الشعرية، وفي كل الحالات تقف على تخوم العديد من أنواع الكتابة الأدبية.

لعل هذا هو أحد إشكاليات هذه الكتابة، أليست في النهاية محض تساؤل؟ تساؤل يُحيل إلى السرِّي والغامض، لا يقرر، بل يدع للمتلقي حرية عبور النص، في الاتصال به، والتفاعل معه، مشاركاً بقدر يوازي طاقة الإبداع الأولى ـ بالنسبة للكاتب ـ ليبدعَ هو الكتابة الموازية والمتعددة للنص الأول، وتلك إشكالية أخرى لتلك الكتابة، هل استطاعت بالفعل أن تحققها؟

وهذا هو ما تحاول تلك اللغة/ الكتابة ـ الإشكالية الأكثر إثارة ـ في سعيها للخروج من أسر التقريرية، وأحادية الدلالة، ووعائيتها المظنون بها، فهي في مجاهدتها من أجل تحقيق الرحابة الدلالية، وسريَّة المرجع، تأبى

اتخاذ الموقف البطريركي إزاء المتلقي، فهي لغة شبقة للتعددية، تفترض الكثافة الدلالية شرطاً أولياً لحيويتها، ويرتهن وجودها بقدرتها على الاستمرار في الإحالة، وقبولها الدائم للصياغات المتولدة. هل يمكن القول إنها لغة/ كتابة ديموقراطية؟

وهي في سبيلها هذا تقترب بقدر ما تبتعد، تقترب من الجوهري بقدر ابتعادها عن الظاهري السطحي، لا تعتزل العالم، بل ترتاد آناءه، تبتغي نيلَ جوهره، قدس أقداسه، وكشف السر المطمور في تفاصيل حركته اليومية، تسعى إلى الاتصال بالقانون العام، بالحياة في مواقيت وهجانها، وبحالات تجسد موضوع الوعي في لحظات كماله وتألقه؛ ليتخلق النص، متسماً بالحياة، والقدرة الذاتية على الاستمرار، وبكونه الوحدة الأولية

لتكوُّن الكلّ المختَزَل فيه، والذي هو في النهاية مجموعة الظواهر الزمانية، والمكانية، والإنسانية التي يُحيل إليها.

هل يحق لي القول إنها كتابة في حاجة إلى التأمل؟ بل إنها تدعو إلى ذلك؛ فهي لا تبتغي التصديق بها، بل تأويلها.

ناصر الحلواني

وجه

ضوء يراوغُ الطَّريق، يلتَمُّ في زوايا الأرصفة، يهدأ على حَوَافِ شروخ الأبواب، فوق حبات الرَّمل المكنُوس، يرسم خطوطَ لمعانٍ، موصولة بظلال خافتة، تمارس وجودها خلف شبابيك مَسْكُوكَة، تحوشُ الكون عن مشاهدة الفعل، وتتجاهل الطريق العابرَ، يدفعه النور الشحيح، وهواءٌ يثير تراب الليل في وجه رجل بعيد.

مكان

السقفُ رمادي، مُسوَدٌّ، مَهيب بإزاء المربع الأرضي، وعلى الجدار قصيدة، رديئة الحروف، وحَفر في الجدار المواجه، يحكي وجه أنثى.

تمتدُ خطوط حالكة، بدائية وقديمة، لأصابع ترغبُ في النفاذ أو التمدد، تَخفُّ عند التقائها بالأرض، تكثفُ بالقرب من الكوَّة، وتزداد قتامتها حول قضبان الفصل، بين زرقة السماء والأرض الغَامقة، في رمادية خشنة، تسحق الحلم الكامن.

وبين الجدار، المطلي بأزمان المطمورين فيه، والبوابة المموهة بصفصافة متكلسة، ينبت عشب، صامتُ الخضرة، يتعلق ببثور الرمل النافر على وجه الحائط، وبلون مخنوق، يرسم أغنية واهية.

استجواب

يصفعه السؤال، تدور الحروف صعودا، من أحشاء يبُست بالجوع، تمرُّ إلى الحَلقِ، تتخبط في جفافه، فتتكسر أصواتها، لتبلغ الشَّفَةَ المزمومة على قهرها، يصدرُ ما قدَرَ على الخروج من كلمات مهشمة الأطراف، لتذوب في الآذان المنتصبة، ويتواصل ركام الأسئلة، يغيب تحته موؤودا، وينفجر ملل الانتظار لكلامه، يصدِّعُ صمتَه، فتسيل خيالاتُه على الأرض المبهمة تحته، تبخرها السخونة المنبعثة من آلامه، تمتزج بها صور مشوشة لبوابة منفرجة، وضوءٍ يحط على رأسه، لا تشقه قضبان الكوة التي يعود إليها، كل يوم، يفوت بالعين منها، إلى سماء مهشمة الزرقة، وعصافير تتساقط.

بعض من سفر

يخوض في سبل الليل والمطر، وحوله كانت خفقات الماء المنهمر تغيب في ألق الماء الجاري، تبعثر تلاوين الضوء المنثورة بين المصابيح المتواترة، تهيل على الشوارع المطفأة ظلاً كثيفاً، يمتزج بخطاه الموغلة في صرامة الرذاذ، فلا يملك رجوعاً لترانيمه، التي يحدو بها ذاته في سفره، فيخوض في طوفان الضوء السابح في عتمة الماء، يتلمس رسمها المتروك على الجدار، يُنصت لنشيج انتظارها المنقوش في تفاصيل نافذة بعيدة، ويمضي، يواجهه الطريق، رائحةُ الجدران العالقة ببقاياه، تناوش ليله البيوت الواجمة، فيأتيه طائف من ليلها، يُظهره على بقائها، في مكانها، ترقب سكون المداخل، وترتقب مجيئه، لتحل في لحظة وصوله كالفرح المباغت، وفي جسده يحسُّها، كالحزن القديم، وفي روحه يشعر بوخز البعد، والطريق يغشاه المطر الآخذ

في الهطول بطيئا لامعا، يعكس في حنايا قطراته ملامح وجهه المسافر، يقصد موطن اللقاء، يحمل إلى كفيها بعضاً من برودة المطر، وأزمان غيبته.

أشياء

امرأة ...

طريق خافت، وصمت بطول الطريق، وحدود امرأة غائمة في ضوء الليل الواقع عند التقاطع القديم، تطوِّحُ في الأنحاء بقطع من ملل تنكسر من زمن انتظارها، تشدُّ عقدة الحرير حول عنقها، فتثير العتمة الكامنة في ثنايا اللحم، تروحُ بعينيها إلى السماء، فتعرف أن نهاراً آتٍ، وتعرف أن تَستُّرَها قد حان، وأن السائرين ليلاً قد ماتوا جميعهم الليلة، وأن يوماً قد مر.

رجل ...

بضع أشجار، يمتزج ظلّها المختبئ في ظلمة الطريق بخطوات الآتي إلى كتلة الضوء الضئيلة، عند التقاطع البعيد. تطوِّحُهُ الحوائط والأعمدة المطفأة، فيرتدُّ إلى ثِقَله البدائي، يتهاوى إلى لحظة مصمتة،

تزيح عن عينيه تفاصيل الزمن، تثير خطوط مرارة خافية في جسده، تدمع عيناه، يضحك، يقبض الكفَّ بالكفِّ ويبكي، يدور حول الليلة المطروحة في الطريق، تبقى ميتة، فيقذف بحشرجة باقية في الحَلقِ، يسقط في امتدادها جزء من صوته، فيبدأ الصمت وكتلة الضوء في التعكر.

شيء ...

ضوء لا يفضح، أصوات تتهشم، وتحت الليل كانت تتكسر بقاياها، وفي عينيها كانت خطوط جسده تسيل مختلطة بالملل الذي لفظته دفعة واحدة، في نهاية يومها، يتدحرجان بطول الطريق، يعكران الليل الراحل، والضوء، يرتميان كشيء واحد، ضئيل خافت.

لونية

رسم بالخَطِّ ضفَّةً وضَفَّة، في المابين سكب الأزرق، وسمكات تتلألأ بقَطرِ الشمس المبعوثة في اللُّجَّة، وبالأحمر فرش المُرجان في محاذاة الشاطئ، مغروساً في التموجات، متوهجاً بحدةٍ في البرودة المظلمة، والقاع فسيح بعثره فوق الحدود، الخطوط، الصلابة الزاوية، ابتعد عن الدائرة، المربع، المثلث، وانهمك في شخبطات نالت كل الأطراف، أوصلت بقدر انقطاعها، وبالأبيض المرئي جعل أفقاً، وفي القلب شمساً فارغة بلون الصفحة، لا تذهبُ إلى شيء، تشدُّ العينَ إلى بريق غير موجود، يزيحُ اللون الفاصل بين الأفق وبين البحر، يُشعل الأخضرَ في صفرة رملية، يبعثر الثمرَ على ضفتيه، وبالملحِ الشفيف يرتِّبُ موجات متلاطمة، تعبث بغريق.

سوناتا النافذة

كانت نافذة هناك، عبر النافذة هنا، خلفها، على مربعات الزجاج، كان طيفها، رأسها في مربع، وصدرها في مربع، يجادل رسمه الإطار، يُخضع له خطوطه، وكانت قائمة في دلال، تحجبها ستارة منسدلة على النافذة من الخلف، أمامها، بيننا، وكنت أراها، وتراني (ظننت)، وأسمع نغمات الضوء الخلفي على سُداها البعيد، وأنصت إليها، تتمتم بشوقها، تسمع (خِلتُ) توهجي، يلامس خُلوتَها، ليونة الحلم البادي، أرمقها (ظِلَّهَا) تهفو، وأسبح في تفاصيلها، حتى تأفلُ في هدوء رقيق.

أرانا نسيرُ معاً في الطريق، وفي يميني سرُّ السماء، أجتاز المسافات بين النوافذ، أصير في حضورها، ألج كلمةً سحريَّة، وأغيب في قلبها، وأسكن الصمت.

وكانت النافذة هناك، عبر النافذة هنا، مغلقة، خلفها كانت بادية الحدود، وكنت وحدي، أجول في لحظات الفصل، في المسافة، أغني، أدمعُ، وأدفع الحُجُب القاسية عن سُداهَا، وأَصِلُ الليلَ بالليلِ، وأجوبُ الحروفَ، أبحثُ عن اسم، وكانت النافذة هناك مغلقة، وأمامي الأجزاء موصولة، ترتع في الانحناءات، وواد من البُعد، تسكن في منتهاه، وكان وجه، وشذرات حُلم، وصباح شاسع، يتكئ على حافة نافذة مغلقة.

سوناتا الشجرة

المحطة مزدحمة، والطريقُ الذي يفصله عن الحديقة سور حديدي، لا يعوق الغبار أو الضوضاء، أو الموتَ للزهرات الملونة (كانت)، أو الصُّفرةَ للحشائش النابتة بين بلاطات الإسمنت، ولم تكن رائحة، وكانت مقاعد رخامية رخيصة، مُترَبَة، باردة، ولم تكن طيور، ولا زقزقات، وكان صخب، يندد بصمتي، وأنا أنتظرها.

جاءت، اقتربنا، عانقتها (كِدتُ)، جلسنا، حدثتها عن منزلي القديم، كتبي الكثيرة، أشعاري وقصصي، وجدي لأمي، والغافقي، وأمي الأرملة، وأبنائها، وفان جوج، وعن الجنوب والشمال، وعلاقات الإنتاج. حدثتني عن أبيها وأمها، ونافذتها المغلقة، وزهرتي الجافة في كتابها، وبيتنا (الحلم).

جفونها ترتجف، وشفتاها، ويدي، فداعبت أناملها، ولبرهة

غابت، نظروا إلينا، لم ننظر إليهم. غادرنا الحديقة، وغابت تحت أقدامنا طراوة العشب (الجاف)، واقتحمت هبَّة تراب أنفها، سعلَت، بحثت في جيوبي، لم أجد منديلا، سعلتُ أنا أيضا، عبرنا إلى شارع صغير، الأشجار على جانبيه، مشغولة ظلالها جميعها، وأنا وهي، كلمتُها عن آدم وحواء، ذكرَت تفاحة، أخبرتُها أنها المسؤولة، ردَّت بل هو، وذكرتُ أنها أغوته، وجادلت بأنه استسلم، فقلت لها: لم لا تغوينني؟ صمتت، ولم يكن في الشارع الصغير شجرة لنا.

وهلة

صمت يخايل المقاعد، تصعد المترو، يرقبك السواد العالق بالجلد المرتخي، تقبع إلى جوار النافذة، تلمحُ خلف الزجاج المغبش اختلاط الرؤوس القريبة بالأقدام على الرصيف البعيد، وتسارع الأجساد إلى الفراغ المتاح من حولك. تحطُّ مرفقك على الحافة الباردة، أو تبسط جريدة مسائية، تقرأ بعيون ثقيلة، تنغمر في سكونك الخاص، وحولك يهدر الضجيج، يصبح الكشك المضيء مصباحاً بعيداً، تعبر الأشياء في عينيك، تتجاوز وجهك، ويبقى في عينيك السور القريب، والغيوم فوق الشارع الموازي، تستسلمُ لاهتزازة لينة، تغيب في حركة وصول البعض إلى محطاتهم، وانفتاح الأبواب، فتفجأك البرودة، وبقايا أحاديث تصعد، يزدحم الصخب في بصرك، يتجدد بدء المسير، يغيب الضوء لوهلة، فيغشاك حلم

الابتعاد، ويعود الكهل ليلمَّ ما نثره على السيقان المجهدة، يدعو، يسب، يحجل، ليقفز إلى عربة أخرى، وتميلُ، لترحلَ في زجاج النافذة المغلقة.

نصف زمن

كوب من الشاي الخفيف، ونصف ليمونة أوشكت أن تيبس، عصرها في فمه، ألقاها في الكوب، ودعا الله أن تعود الليمونة حيَّة، بعد أن تشرَّبت نصف الشاي الدافئ، خاصة وأنه في حاجة لمن يؤنس وحدته، وهو الغرض الذي حدده في دعائه على نحو تفصيلي، ذاكراً مبلغ معاناته، ومدى الألم المنبعث من أكثر المناطق غموضاً في جسده، والزمن المبتور الذي يمر به، ولمَّا كان يعرف أن الاستجابة قد لا تكون في اللحظة ذاتها، فقد شرع في القراءة، وشرب نصف كوب الشاي البارد، المتبقي من الليمونة المنتفشة في صمت.

كيفما اتفق، مدَّ يده إلى الصندوق، جذب كتاباً وقرأ: "هناك، ظل رجال منذ نعومة أظفارهم، وقد قُيِّدَت أرجلهم وأعناقهم بأغلال، بحيث لا يستطيعون التحرك من أماكنهم، ولا رؤية أي شيء سوى

ما يقع أمام أنظارهم"[1] أعاد الكتاب، وتحسس عنقه، انتابه شعور مجهول المصدر، يثير في نفسه الحرج الشديد، فتشاغل عنه بالنظر إلى الزهور الزجاجية، البارزة كالأحشاء المبقورة، على جدران الكوب، الذي يحوي نصف الليمونة، التي بدأت في نزف الشاي أسودَ كثيفاً لزجاً، فيما استحالت قشرتها إلى لون ترابي، لا تملك استدارتها المترهلة إلا النزف حتى اليُبسِ، فقبض الكوبَ بين يديه، وتمنى لو تحولت الأشياء إلى أشجار، وأصبحت الأشجار بشراً، ومد يده إلى عنقه، وشرع في المحاولة.

---

(1) محاورة الجمهورية، الكتاب السابع، أفلاطون.

مواجهة

في الطريق، حينما تنحرف يساراً فجأة، من ثمَّ ترى المئذنة البعيدة، تنطلق من بين أسطح البيوت المتراكمة على مدى البصر، تبدأ في البحث عن شارع صغير، أو حارة ضيقة، تتراص كراسي المقهى بين حائطيها، فلا تجد، فتقفل عائدا بسرعة، فتجده في مواجهتك، يستند في هدوء القناص إلى بوابة المطعم الذي يقدم رؤوس العجول كاملة، غاطسةً حتى قرونها في المَرَق، خلفه، إلى الأعلى قليلا، يتسرب البخار الدَّسم، من كوَّة فوق الباب، وأنت أمامه، يتصاعد الخوف من كل الثغرات المبعثرة على جسدك، ينداح مع العرق الدافئ، يغلب عليك التوتر، تفاجأ بتضاؤل الاحتمالات حتى الاستسلام، فتندفس ركبتاك في التراب، وتنتظر في هدوء الجثة المقتولة توا، أزيز طلقة خاطفة تعبر رأسك.

النهر

يتباعد ليلٌ، يذهب عن حيطان الطين والغيطان، يهجع في قاع النهر، يرقب شمسا تصعدُ، تبعث في البرودة المخبوءة الضوء، فتختمر مويجات النهر، وتفور ليونتها، فتحل على الشطِّ بريقاً، تداعب صلابة الحلفاء، واخضرار الطحالب على خشب المركب القديم، تردُّ بهجة الصُّبحِ إلى وجه الكهل الجالس بين المجدافين.

تدسُّ الشمس سخونتها في الأرض، تحت خطوات الصبي، تغوص قدماه في طين الشطِّ، تحتك بصفرة العشب المائل إلى المركب القديم، يلفُّ طَرفَ الشبكة حول جذعه، ويسير، يسمع طرقات الكهل على الخشب المتآكل، ليفزعَ السمك إلى الخيوط.

يسير الصبي، يخبط بقدميه على حد التقاء النهر والطين، يسرحُ في الظلال المنشورة في قلب الغيطان، في الألوان الزاهية لجلابيب

البنات النابتة تحت النخل البعيد، تُخفي بالمناديل أطراف العيون، وتقعي، تحفر بالفأس الصغيرة منامات الحبِّ المبذور.

يحلم، يقبض طرف الحبل المجدول، ويرنو للكهل الساري في النهر، يقبع في بطن المركب في سكون طافٍ، يعبران تحت الشمس، يجتازان الجزر الرملية، النخل، القبة الجيرية للمقام، بيوت الطين، والعيال، شجيرات الدوم، ظل الجسر، شواشي القصب المحروق في الصهد.

تدنو الشمس من غروبها، فتسكن ظلال الساقية على عشب الشوك، يهمد الكهل خلف ناره الصغيرة، يجهز شايه، مسنودا إلى حائط الطين، ناعسا.

يسير الصبي إلى جذع النخلة المبتور، يلقى الأصحاب، يحكون عن يوم فات، وجنيَّات النهر، والبنات الملونة في الحقول.

تكسرات الظل

أعين مُشرَبةٌ بالضوء، تنعكس فيها تطوحات النار في المصباح الصغير، تنظر إلى حافة الوعاء الذي ينذر بالجوع، يثير السؤال اليومي عن معنى الشبع، في مخيلة عُمال اليومية. يروغ الضوء إلى شذرات الخبز ليعوِّض ما ينقص من غموسٍ، يندمج ببدائية الأصابع المنغمسة في المتاح من طعام، تمتد من مسافات العتمة المحيطة، التي تغشى خطوط ظهورهم المحنية على قُوتِها، يعتليها تراب اليوم، المضطجع على ما بقي من عافيتهم، وعلى أشيائهم القليلة، تتبعثر بين مجلسهم وأطراف الخيمة المنصوبة في جوار شقائهم النهاري، تدوس الأحجار على أطرافها أوتادا، وإلى جانبها تبيت معاولهم، مخدوشة نصالها بالضوء المكسور، غائبة تفاصيل مقابضها في آثار الأفعال المتواترة عليها، وأكفٍ خشنة، يقبع أصحابها في زاوية يومهم، يزدردون كسرات الخبز، ورائحة اللهب الخافت في المصباح الصغير.

مغادرات

الباب الخشبي يشرب شِلوُ الضوء المفصول عن الشمس المغادرة، يذوب في شقوقه، فيعتِّمَهُ.

كان يلملم أشياءه، وأياماً بها موصولة، وكان نثيث نهار برتقالي مبهم ما زال عالقاً بحافة النافذة المتربة. يجمع الكلمات المحفورة في جير الحائط، فيما ينسل آخر اليوم رماديا عبر الزجاج، يرتب في الذاكرة القصيدة، وفي الحقيبة الأشياء القليلة، وفي العين ما سيغادره.

يرقب أفول الظلال من حوله، ترمقه دوائر الملح على الجدران، يلوذ أول الليل بالأركان، تنفذ إلى كنِّه خطوط ضوء أعفر ينفذ عبر ألواح الباب، وأصوات ملتبسة، تهز خيطاً جسدياً واهناً، يتدلى لامعاً من المصباح المنطفئ، يقتحم الليل المكان، فيتعلق ما بقي من غبار الضوء بالأشياء، المموهة بالعتمة، التي تعلن سطوتها على الموجودات والمكان،

والذاهب بقصيدة وحقيبة على كتفه، يفتح بابه، فيندفع كل ليل الخارج نحوه، وغمغمات الطرقات، يخرج، فيما تنحشر كسرات الصوت وبخار الضوء المعتم في المكان.

بنت

للعصافير الآتية مع ندى الفجر، ينثر حبَّات الأرز بقبضة يده الكهلة أمام الدكَّان، ينثرها في المساء، فكنت أشم لها رائحة اليوم الساري في طين الليل المتراكم في الزقاق، المؤدي إلى البيوت الجاثمة على ضيق نهايته، تحولُ دون تمدده، تجبره على الانكماش، وما بين مقعد الإسكافي ودكان الترزي البلدي، كان دكانه الصغير.

في الليل، في الميدان الصادح بالنور، ألعب مع العيال، نقذف اللمبات بالطوب، نتحدث عن البنات النائمة، تداريها الحوائط، وصرامة الشوارع، نثقب ظلام الزقاق بصيحاتنا المرتجفة، نلمح القطط والعفاريت، نطوِّحُ نحوها الأحجار.

لم أكن أجرؤ على دخوله، فالأرض ضيقة، يسكنها رماد يوم محترق،

والدكاكين ساكنة، ارتخت أبوابها على العتبات، والبيوت معتمة، يمتص دُكنَتَها ظلام الشوارع المحيطة، وكائنات تسبح في جوعها، تُطوِّحها رغبتها في الامتلاء، ينوبها الخوف الذائب من شحوب المصابيح العالية، لا تُبدي التي هناك، ترقد في وهن اللهب المشتعل في فتيل اللمبة المعلقة بين الحجرات، ترجف تحت لحظات باقية من غطاء قديم.

في الصباح أذهب إلى الدكان، وكانت حكايات الشيخ عن الراقدة خلف الثقب الظاهر في جنب البيت، تصيح دوماً ولا تموت، والبنت التي تتسرب ليلا، يفوح عطرها فتُغشي العيون عنها، لتعود قبلما تلتقط العصافير الغافية حبات أرزه المبذورة في الليل، تسير في خطوات مكدودة، ترقبها مداخل البيوت في نهم، وقبلما تدرك الوصول، يتخبط صياح العجوز الراقدة، خلف ليل ينفذ من ثقب في جنب البيت، فتهتز الذبالة الباقية في لمبة الجاز، تحين الصلاة، وينبت سؤال عن جنون العجائز، فيصمت عن حكاياته، وأعرف.

في الليل أنتظر، أرقب الزقاق، وخطوات الأمس المرسومة في طراوة الطين، ولهفة الخفافيش على دفع بقايا ضوء اليوم، وبعيدا، ألمح الثقب

الضئيل، وفي اتساع الخَلفِ أرى البنت نائمة عند قدَمي العجوز الراجفتين، تحلم بي، أعتنق الحلم، تمد الكفَّ، أتلهف إليه، أحس في الفم طزاجة، أدسُّ القلب في المسافة بيننا، ينحشر بين الطوب المتآكل وصوت العجوز، فيحل في الحلق طعم الانتهاء المرتقب.

في بعض الصباحات، يدعني أبقى في الدكان وحدي، ويذهب، كانت تجيء، تبتاع الملح الخشن وأرغفة خبز، يضل الإحساس بقروشها القليلة في يدي، يسكن صوتها الخفي في سمعي، أنتظر انغمارها في مدخل بيتها، وتبقى معي عيناها، أحوطهما بألفة الصباح، فتمتزجان بطعم السمسم، ورائحة معتقة تفيض من حوائط الدكان، وزقزقة عصافير تلتقط حبات أرزها، ونهار جديد.

الدكَّان

ولما أزاح رائحة التوابل الحادة، المنبعثة من الأدراج المتراصة في قلب الدكان، تبدَّى الصندوق المحاط فضاؤه بالخشب القديم، تضمه خطوط من معدن نحاسي الهوى، له لون دفء عتيق، ومِذاق الحرافة المنسربة من أرجائه السحيقة، لتحوِّم في أرجاء المكان الذي يضمني معهما.

يأتيني صوته واهنا: "في الكون المحدود بأخشاب الصندوق، ترقد الأزمان الغابرة".

يبسط كفَّه المتغضنة عند الشقِّ، بين حافة الغطاء المحكم، ونهاية الألواح التي تخفي سيلاً من الأسئلة والحواديت، وكان يبسط العينين عند الشق نفسه، ويتمتم

ـ "بعدما أرحل، افتح الصندوق، ستجدني هناك"، وأبتهجُ:

ـ "هل هو لي؟" ومن بين حافتي ابتسامة غائصة في جعدات جفونه،

يجيء الرد مكرِّرا: "بعدما أرحل".

في النوم، تنبت حقول الحلم، أجتاز الشق الفاصل، ويرتفع الغطاء، لينكشف لي عن الكون المستور.

في الليل، أسير إلى العيال في الميدان، يلعبون بالوهج المتدلي من لمبات الأعمدة، يرقبون البنت المحفورة في الشيش البعيد، تضفر بقايا ليل ببقايا كائن وحيد، تطل على الطريق وساحة لعبنا. أقذف لها حفنة أرز، تلتقط حبة منها، وأعود إلى الدكان، أرجع بحفنة سمسم، ورائحة مسك من قلب الجد، الواقف عند الباب، يمنحني الفرح للبنت والعيال.

كنت أذهب معه إلى الشوارع الصغيرة المتداخلة، مثل متاهة ساذجة، تحملنا إلى بوابات تؤطر بعضاً من سماء، وتحوي بعضاً من أرض، وإلى ناس، وجِمالٍ تحمل أكداسا من المطحون والمدقوق، يقول لي: "قادمة من الهند"، نمرُّ بمتاجر مرصوصة، تعرض بضائعها: "من مشارق الأرض ومغاربها" يخبرني.

ونعود، نحمل العالم إلى الدكان، نرصُّ الألوان على الأرفف، نملأ

الأدراج بالروائح المجلوبة من المدن القاصية، نتسامر، فأحكي عن أحداث الليل، ويقص عليَّ حكايات عن المآذن والحوانيت القديمة، وحمامات العثمانلية، أحدثه عن الأحلام، وأسأله عن الصندوق، فيدسّ تراب النشوق في أنفه ويسعل، فتلمع عيناه بالسر المخبوء.

وفي الأفق، يخفت الوهج اليومي، وعلى الأرض تحل عصافير العصاري، ترتقب رزقها، تنقر يبس الرملات، تزقزق، أنظر إليها، وأزيح لها الكُناسَة، وأجمع القروش الساقطة تحت البنك، أعطيه إياها، وأنتظر ذراعه النحيلة، تدفع معي الباب، لنسكَّ الدكان، ويذهب، ولا يجيء.

ويتشابك في الليل دفء الوجد ببرودة الترقب، ويفوح من الصندوق الكلمات: "الآن، هو لك"، فيغمرني الارتواء ورجف الفرح والدهشة، فأجلس إلى الصندوق، في العين بعض ضوء، يرحل عبر الشق المعتم، فينفتح لي الغطاء، فأجده هناك، يغزل نهراً من حواديت للبنات في الشبابيك، والعيال في الميدان المنوَّر.

حال

تنزوي الحركة، يشيع سكون يعلق بإزار الوقت، فينفض الصمت عن كاهله عبء الزمن، ينسرب نسيم اللقاء إلى أبدٍ يحلُّ في الوهلة، يتعانقان، تحصل الدُّغمة، تغوص الكلمة المرتقبة في الوجد المشتَهَر، ويكمن العلَن في خاطرة تشتهي الكامن، ويبقى السرُّ يكبر، يضيق به المكان، يسعى إلى الامتداد، فيسري في الكائنات، يحل في أبيض نور الشمس، وفي غموض الزمن المقبل، يصعد من طين اليوم، إلى زهرة تهجع، ترتقب الرائحة الممزوجة باللون المرغوب، وغدا غير منته.

وطر المكابد

يلوح سبيل الوصل، فيلجُ المدّثِّر بالهوى المخبوء، يسكن إلى طيف المحبوب، ويبقى، حتى يبرح به الوجد، فيجاهد للقاء مرتجاه، عازماً على مجاوزة المدارك إلى حال العشق، يسري، تُظهره العتمة الممدودة على الطريق، فينأى عن مراتب التعلل في الحرمان بالقناعة، يدنو من تهيؤه ويسير، يحطُّ الخطوَ في الخطوِ، تشده لوعة التفكر في الآتي بعد حين، تغشاه لحظات الشوق، وأنات معرفة المخبوء، حتى يبين له الذي بكونه هو موصول، فيفصح القلب عن لواعجه، ويحصل الوهج، فيوقن أن الحال حال وِصال، فيلج ترانيم الصبابة، يصعد حتى يحضره الصعودُ، ويعود، ولمَّا يزل.

مداخلات ليلية

مراسم الليل الجائي تشرع في الولوج، يسقط عن عرشه المرسوم في ملامح المفترقات مَلكٌ، يحيكون شاهدا من مداد زيتي، تخمَّر في طراوة إماءٍ، هُصرت أجسادهن حتى بانت الروح منهن، يلهثن في قبضة بنعومة رياش يتماوج على فراش خلاسية.

وفي مكامن الظل، تحت عروق الورق الأخضر،حيث يسري الماء الممزوج بالطين الخالص والدود، يهجع شعب موفور الوقت، من طيور بيضاء، بلا سوء أو عيون.

وفي حبَّات التراب المنتصبة على حد الطلقات المارقة، يحل الموت في لحظة مباغتة، فيسقط محارب، نفد جوعه، ولما يأته المدد.

وفي المقهى الغابر، على المقاعد المهيأة للمتروك، يتسامر الصحاب، في

الليلة المنقضية، ينغمرون في الأمس، وفي الأبد الآتي، يغيبون في صمت طقسي، يتتابه بين الحين والحين كلام.

وفي السماء، كان قمر عتيق، يبحث عن زمن مغاير لليل، مغاير للنهار، تضيق به منازله، يمرق إلى مداره الملل، وحزن ضوء وحيد، يهبط على الكون مساء ثقيلا.

وفي المساء، الموشَّى بنثار كلام لما يكن، وفتات ضوء من نجوم قاصية، يَشجُ الباحات المنثورة، يعلَقُ بحواف الظل والأجساد، تنزع الخلاسية، في خفة موهوبة، لوامع الزمن المعلقة في أطراف الملك المغدور، وتتراءى صور المحارب، مغروزا في قلبه الدرب الترابي، ويثقل الليل المهموم على أجنحة الطيور، فلا تطير أو تُبصر، فتناجي القمر المجهد في سأمه.

وفي المقهى، يغادر الصحاب، وعلى أنحاء المقاعد المهملة، تبقى بضعة حروف مهملة، وبعض من صمت.

احتمالات النهار

من غبَش الفجر المغسول بالندى يصعد نهار، يعتلي رؤوس الجبال في أطراف المدينة، يبقى قليلاً في المعبد الصغير المهجور، هناك، يضيء تعاشيق اللون على زجاج النوافذ، يسكن بعضه على حواف الغبار، الذي يحط على تفاصيل القديسين المنحوتين تحت خيوط عناكب، تعكس ظهورها المصقولة لمعان الضوء، فيصير إلى الوجوه المحشوة بالسكينة، فبانت خابية، مطموسة الإحساس بذل خطيئة، تمور على أطراف أصابعها، القابضة على دلَّايات من ضحايا الاعتقاد بالصخور، وإلى الكتب المكسورة بين أيديهم، والكلمات الزجاجية المطروحة وراء حوائط المعبد، مهشمة بين صبارات صفراء، وآخذة في الاصفرار، أكل النمل الوحشي حروفها المجردة، وجعل التشكيلات منازل، يباركها

النهار الذاهب، عبر باب خشبي، له رائحة الوقت المطمور، منحوت في آنائه أسماء المحطوطين في النوافذ، ويخرج، بما بقي من ضوئه، إلى عشب المنحدر الجاف، ينسال إلى الوادي، يحمل ظلال الطير الراحلة إلى هجرتها، وعبق الريح الساكنة دهوراً في معبدها المهجور، يبعثرها على الأخضر المترامي، تحت أفق مشرَب برمادية ليلة تتهيأ للحلول، تشوبها تفاصيل النهار، يبتعد في الوديان، وفي أطراف الأشجار المسافرة إلى طرق لم يألفها، يتفتت في الأشياء والحوائط، يكمن في الظلال المرمية في الزوايا، وفي أهداب الهوام، والشقوق، وبين حبيبات الرمل الثقيلة، وفي احتمالات اليوم الذاهب.

منتهى العشب أول الرمل

تسكن قدماه الحافيتان تلّة العشب دائم الخضرة، يرتل في نغم المواكب القدسية بعضاً من أحزان الموتى وفرح الآتين، وفوق العشب يوقفونه، وفوقه شجرة التين، تمد خرافتها وفروعها المتخمة بصمت الظل وخلاصة الطين.

تتشكل النطفة في الرَحِم المقدس القابع في المحاريب، وفي عُقد المساجد، وبقايا الماء في أواني شعب مغدور، وتفاسير الرجل البرِّي للطبيعة والجسد الإنساني والآلهة، ويتشكل النور هالةً تتبع الرأس.

يتدلى الفرع المثقل برغبة المحاصرين له، يشتبك بالنور، والنور بالقلب، والقلب بالدم المعلن في الأطراف، فتتمزق في صرامة بساطة اللون في الرحابة، بين التينة والبحر السماء، وتميل أوراق الأخضر

الموشومة في جذوع اليوم إلى مبتدأ الليل، فيبدأ يحتويها الظل اللابد في فجاجة ثمر يداري المرأة المسوَّاة من شبق المدائن، المتربصة بشغف البرِّي الساعي إلى معارفه بالأشياء، والأسماء، فتخلع عليه الأشياء، والأسماء، والجسد الصُّراح، وتُقرُّ في معارفه أن للصوت تراكيب وألوانا، وللأشياء تفاعيلها، وللأسماء شفرتها، وللجسد أوضاعاً وتجليات لم يألفها، فيتبعها، تخوض به في منتهيات العشب وأوائل الرمل، يفوت إلى الخرافة السارية من الجسد النابتِ، إلى الجسد المدلَّى من مرارة الثمر، يذوب في شغف المتحلقين ، يرقبون خلاص آخر التفاسير.

رقصة

كالغمد فارعة في صلابة، تمزج ملامح زمنها المنقضي حركات مستقرة في مواضع التثنِّي، في جسدها الملفوف بخرقٍ، تتماسك في جهد على كتفيها الضئيلتين. تكاد تسقط عن وسطها الشاحب، حتى تبين أعضاء وجودها كنحت غير مستبين، له لمعة بوص يوشك على بعث لحن مرتجل. يحوطها النغم المرسَل، يلامس أطراف جدائل شقراء باهتة، تدور في ليونة ملكية حول رأسها، فتتأرجح عيناها، أنفها، الزغب الذهبي على صدغها، البادي كلوحة مرمرية زالت عنها ملامح القديس المجهول، وظلَّ ما يوحي بالمقدس.

يحوي النغمُ الرأسَ، ينثال عبر الجدائل، التي سرح ما تعكسه من نور إلى الرقبة الحادة، فانتشت، والكتفين، وتسربت الثمالة والوهج إلى العروق الخضراء الدقيقة على ظهر الكف، الذي امتد يداعب الهواء

بأصابع عودية، يلامس الكتف، في موسقة رائعة، فيتثنى مع اللحن الآخذ في التراحب، حتى يشمل النسيج الذائب، خافت الألوان، المتداخل في ارتجال، المتضمن الجسد المستغرق في علاقات النغم المتتالية، المسترسل في بطء وحيوية، تحتضنه بذراعين تأسران الخصر المراوح في خفة شجية، بين أدنى الحركة وأقصاها، تفك عن نفسها الثوب، يهوي متسارعا، فينكشف الصدر، فالقلب، فالروح، ويسكن حول مستقر جذعها، تنحني برشاقة، تتناوله، بحركة سريعة، بأطراف أناملها، وترحل.

جمرة البدن

رائحة موسيقى خافتة، تتكاثف لتملأ فضاء المسافة بين المبعث وخطوط جسدها الآنس بالنغم، يقترب بها، تتقاصى يداها، تجوبان مزاجات البرية، تفوحان بمقاطع من طقوس تقرُّب، فتأتلف إلى اللحن الغاشيها، تذهب بالعينين إلى لحظة وصول، يبين لإغضائهما الليل الأبدي، متلاوناً بالضوء النافذ في الجسد الضام العين، الراحلة في الجسد المنفرد، البادئ في الخروج عن تفاصيل الذات يستلُّ أوائل الحركة من جمرة البدن، فتستطيل حتى تشمل الكون الكائن في لحظة الخلاص، فيتبدل الزمن المقاس بالأشياء إلى وهج آني، ويدوم الآن، فتتمازج آناء البدن المطلوق بمغاليق الأكوان المستورة، تشتبك الأسرار بأطراف الكف العائد من سماء الفعل ليسكن إلى ليونة الفخذ المرتاب، يحلِّق جاذباً الداخل إلى أقصى إمكانات النغم، وحدود الخارج مفلتها

من مواضعها، فينبعث الملح، شذرات من مادة الخوض، تسري في الملامح المتواترة، تلتحم بالانفلات، وتظلُّ، حتى يشج أول العري أول الملتبس، فتحتد الحركة بشهوة منتهى الوصل، ويسبح الخصر في شطحات تغفل كل اللحظات، يراوح بين الوقف والتهيؤ، ويصعد، ويلين الإياب مترعاً بتواريخ الرمز، لتحوِّم الكفان، تراوحان بين مادة القرابين ومعاني الحركة، تتلاقيان، تتساردان عن مواقيت البعد، تتناءيان، ويداوم الخصر مراوحاته، مشغوفاً بخواطر الجسد، مراوغاً الحدود، وتظل في وصالها، تمد يديها إلى أنأى دلائلها، وترتاد أحوال الحركة، ومقامات السكون.

مراودات الوجد

حطَّ في كفي كتابا، منقوش في أول المتن أول الكلام: "دع عن سبيلك أستار الهوى وأسلك سبيل الحقائق". تفجأني بارقة الوصل، يحل في حال سكوني رسمُها، أهرع إلى مكمني، وأرتقب،قالت: "لا تبرح الأرض حتى تأمن الأرض"، وفاضت على حيرتي بحبات وَجدٍ معتكف في جنباتها، منقوش عليها آيات نسكها إليَّ، تستودعني إياها. قلت: "لكِ أبقى بدوام ترحالي"، وأروح إلى أقصى وهادها، أحطُّ في أشجارها رسوم الليل والنهار، أرتاد عشبها، فألقاهُ، يلتمس في الليل العبارةَ، يلجأ إلى وحدته وحكمته، أدنو من وهج كونه، فينأى عني الظل، يدرك هو حضوري، فيحلُّ في سَمعِي كلامُه: "متى عرفتُ أدركت سبيلَك، ومتى بقيت في بدنك صرت لم تدرك"، فتهيم رجفة معرفتي بين حدِّ الضوء وحدِّ الظلام، فأؤوب من سَفرَتي فيها، مخضباً بالماء والريح، وأُسرع في الرحيل، تستلبثني: "برهة نستمهلها، نجول في

أرجائنا، يرتادنا اليوم ونجوب الأماكن"، أرنو إلى نواحيها، وأعلم فيها نقوشي، أقول: "في مدى الحروف أراكِ، أبتغيكِ وأبتغي الوصول". تمسد وحشتي بأنسها، تراودني عن سبيلي، تبعث في رهبتي الريح، أستوحش الأحوال وأذكرُهُ، تنأى عن حضوري، فأتهيأ، ألملم أغراسي من مائها وأغراض تَرحالي، وكتَابَه، وأسير، يتابع صوتها خَطوي "سِرْ إلى مشيئتك وإلى مشيئتي أسير". يغشاني الحزن والمسافة، فيلقاني، وألقاه، نسافر إلى حيث اللقاء، يجتاز بي الغشاوة قائلا: "خُطاكَ حرُوفُكَ، فَسِر إلى أرض تبتغيها"، ويمضي معي، يكلمني، أفض طوايا الكلام، أجوبُ في أنحاء بداءَتِي، أتشرَّب الأماكن الهائجة في بصري، وأظل بين شوق لنهارها، وبهجة السلوك في الليل المنكشف، أنتبه إلى عبارته "يَضنَى المُعنَّى بصمته، وبصَمتِه يَبْرَأ"، ويسكن إلى وقته، وأنغمر في خوض سبيلي، وتحلُّ هي في غَمرَتي، فأفتح الكتاب، وآتي الزمان كله في برهة، وأسعى إلى مبتغاي، فتصلني بسبيل وجدها الساري إلى القلب، تصعد إلى أجواز المسالك، وتتدارج في خفوت، حتى تسكنُ فيَّ.

مدائن البدء

يكلمني عن المدائن البعيدة، يحكي لي صمتَ الأسوار الموتّدة في جنباتها، أتزوَّدُ بقدرٍ من كَلِمٍ وقدر من بَأسٍ وأقصد الرحيل، يناولني بعضاً من خُبزِه وترنيمة للطريق، أسأله: "بسِّط لي السبيلَ"، يقول: "خُض في أحوال الإرادة، وأملُك صهوَتَك وسيفَك"، وينشد لي سبيلاً من فرح وغُبار، ويمضي معي، فأشهدُ الأبراج والنصال، والمخبوئين في الشرَّافَات، وطيوراً مقذوفة بالحدود، مرمية إلى جوار الحوائط، فيقول لي: "هنا المدينة والمدائن، ونواح السيوف المرسومة على قُدورِ النُّحاس"، ويدور بي في الجهات، إلى أن يحل في القناديل نور، فيُزجي الليل ببعض من حكاياه، ويبقى يقرأ لي حتى نجاوز الحَرفَ، ويغادرنا الوقت، فيسري بي إلى ساحة رمداء، ألمح البيارقَ والدَّمَ الممزوج بصفرة

الامتداد، اقول: "جاؤوا ليأنسوا بالأزمان ولمَّا يبرحوا"، وأحزن، فيقول لي: "هنا يعلم الآتون ساعتهم"، ويفرح، أقول: "لم المجيء ؟" يخبرني: "لهم هذا السكون، وخواطر الامتداد في تاريخ الرمل، ولنا هذه الأغماد"، يجمعها من خصور الجنود، فيبقون في سُبات موتهم، وأجمعها لهم، أسعى إلى الإدراك، ينبئني: "ستصير حروفاً بأطراف المدائن، تمنح الآتين أسرار الأعنَّةِ والسيوف"، ويبرح الكلامَ، أتبعه، فيصير إلى أحوال المنخوسين بالخيانة، يكشف مكامن الموت، ويبسط الكفَّ فوق الرأس والقلب فمواطن الطعنات، يمسحها بتراكيب مخلوقة، لها رائحة الدم المحروق، وقُوام الساحات المبذورة خيلا، فتلتئم الأجساد والبيارق، وتسري في المكان رائحة البَدءِ.

حرف

ولما حكى لي عن أبواب مدينتنا ساءلته: "أحدودنا البوابات ما زالت؟ أغريب يصبح من يعبرها؟"

"من أغصان زهور برية، وجذوع أشجار يكثف فيها الأخضر صُنعت"، أجابني قبلما يذهب. ألحق به، يفرح بي، يأخذني، يولجُ المفتاح في ثقب بابه، فينفتح مكانه، يتمتم بحروف تَخفى على سَمعِي، ويدخلُ، أنبسُ الحرفَ الغامض، وأدركُهُ. يجذبنا الاتساع، يرحل بي إلى أركان مدينته، على الطريق أُبصرُ خيولاً تَرمَحُ، وفرساناً شَاكّين، ونسوة يحملن السقاية والحراب وأزمنة فائتة. يدنيني إليه، يخبرني بقديم عصور وبقايا حروب تتردد في أرجاء الكلمة، يفتح في عيني صندوقَه، يؤوب بالغمد المنقوش والسيف، ويقرأ لي "سُكنَايَ القلب المُتخَثِّر"، ويقول: "مرموز هذا على النَّصلِ".

"أقبضه؟" أقول.

"للفعل ساعته، يحصلُ حين تكون". يجاوبني.

أمزج البصر بالنقوش، أتعلق بالأركان، ويذهب بي إلى ساحة صلصلة، يأمرني: "أرنُ إلى القعقعة، وتبصَّر صهيل الفرسان على رماحهم". أرنو، أُبصرُ في الوجوه عينيه، أشهده يبرق في الساحة، ويعود، يحمل في القبضة بيرقا، وفي القبضة نقشا، يُغمد السيفَ، يودعه الزمان المضمر في صندوقه، ويرتاح في ركنه.

أسأله: "دعني أحمله".

يرد: "ستفعل يوما".

أسأله أن ينقشه على كفي، يفعل، ويمضي بي إلى اوقات قديمة، ألمحه يجري في الحارات، يسعى في الحقول، يصعد أعلى النخل، يهبط، وفي الكفِّ حرفُ، يمنحني إياه، وينبئني "اجعله في القلب يكُن لكَ الزمانُ المخبوء والسيف"، ويغيب.

أعبر أبواب المدينة، أصير إلى حيث يشهدُني، أردد للسبيل حكاياته، وأفتحُ منافذَ الجسد على الكونِ، وأغرسُ الحرفَ.

صحائف الخيل

ولما كان الصباح أنبأني "ذلك يوم ينبئ بالغريب"، وصار إلى ركنه، وصرتُ. نرنو إلى الآتين، يمرقون في الغداة إلى وهدة الصخب، يوفون نذورهم، يشعلون في دم القرابين بخورا، يسكبون الخيول على مذابحهم، ويرقصون في خشوع وبهجة. يقول لي: "يهيمون في لوثة التقرُّب، ويفرحون"، وتلوح على تخوم السكون أثوابهم، مزركشة بألوان الشمالة، ورجفة الهول في القرابين. أناديه: "أيوفون بالدم المنذور، ويمرحون في التراب والريح؟" يجاوبني "يصيرون إلى تيه غير معلوم، يحملون أعضاءهم، ويتفرقون في التراب والريح".

يأخذ بي إلى مكانه، ندفع عن أعيننا ريحَهم، ورؤاهم الممنوحة للأرض، ينشد لي بعضاً من أسراره، ونصعد إلى الموطن المرغوب،

نتنادى بالأسماء، ونظل في كلام، حتى يجنُّ علينا الليل، نهبط، نتكئ على الصحف الموسّدة إلى كفه، ونرقب الرائحين عن وهدتهم، يتدافعون بالمناكب، ويتحاكون، يغمرهم دخان من غنج ولهاث، يتفرقون في الأسواق، يشترون ويبيعون، يلمزون الجواري المعروضات، ويتحسسون خفاياهن.

يباغتنا وهج المشاعل المنظومة في جنبات طريق نهاري، يومئ إلى الرايات المنغرزة في رؤوس الخيام، تناغش صفو السماء، تحمل الرجال الخائرين، تدفع بهم إلى أعفار الليل، مسلوبي السلاح. يراودني السؤال: "أمطعونون منهوبو السلاح؟" يقول لي: "رهنوا السيوف بطعنة". ومضى إلى مشارف الطريق، فتلوته، يشدّني إلى الرؤية، أرى في الخلاء خيولاً تعدو منجردة، تهيم في الأنحاء، تلهث.

يفتح كتابه ويقرأ: "سيكون زمان تهيم خيوله منجردة، سيكون زمان ..."، وتلمع حبتا عينيه، ويصمت، ينحِّي وجهه عني، ويسير، أتبعه، ينزع عن كتبه الأوراق، يصفُّها بطول الطريق، ينظمُ بها تاريخا، وفرسانا، وحروفاً من خيول.

أول الرؤيا

وفي الليلة الثانية بعد الألف رأى أنه نبي، غادر قبة الصوف، يُطلق العشار، ينثر ما بقي من غذاء للساريات في بيدائه، والطائحين في المدى، بين شجرة الشوك وكُثيب يجهر بالشمس، يحمل عصاه الغصن، يودّع شجيرة نابتة على حاشية البئر، يجمع بعضاً من أوراقها، وتركها تحلب الأرض، ترتقب زخات من حزن السماء، ويمضي، يفيض بظله على حبائب الرمل المنحدرة من جهة الشمس إلى غور آثاره الرفيقة، فتتواتر صفرة غير معهودة، تمضي معه، خلفه، بطيئة، كأنها تدرك أن الريح آتية لا ريب، وما يزال في خطوه، حتى أدركته الليلة الثالثة بعد كل لياليه، فلقيها وحيا، فحدَّثها منفردين في فلك من غبار متراكم، ونخيل بكثافة النظرة الواجدة، ونوقٍ هوَّامة بين ركام الغبراء ووهم التمر، حدثها عن

أول الرؤيا، أن يكون درويشا، هاذياً حراً "أفرغُ للمعرفة والبوح، أجوبُ الدروبَ ومعجزات القصيد والبشر، ولا أعود، أكون حيث أكون، برّياً، دوماً في مكاني، أعبُّ الزمن عباً، أنغمر في الزمن حتى ينساني الوقت، أصير كلمة أولى لعبارات متداخلة، لقبائل مبثوثة في كنف النخيل، مموهة المسالك، طَلِقة الوِثاق، أو نقطة تجمع الروح والجسد في لحظة يفنيان ليكونا ثانية، أجادل الأتراب، وأمنح الحرف تعيُّنَه ومعناه، أكون الأَيْسَ كلَّه واللَّيْسَ في آن".

يقصد إلى مسلك غير معلوم، بارح الخفا لِذاتِه، صائر كما رأى أنه صار إلى نبته، يروم القبائل، والنوقَ الشاردة يتريثُها، تُعطيه زادَ السبيل.

كان لليل السالك فيه ألفته، وكانت في بسطته رايات تسنَّمَت الريحَ، مشقوقةَ الطرف. أإشارة تأتيه أن للرمز جسدا يحتشد أسفله؟ فيوقن أن اليقين في مجادلة أصحاب البيارق، يهمُّ إلى ساحاتهم، فتضوَّعت في خيامهم ونخيل السهل أحرُفُه "أجيء لجهلكم بجهلي فهل تجادلون؟" فصامتوه.

وما كان لصهيل الخيل المُحاكَة في فروج الأخبية صوت.

وما كان للرَبعِ المحتشد في اضطرام الظلال والنار صوت.

وكانت الإبل تتسافد في وهج الضوء.

تثير الهَجر المؤلم قاتماً والسالك في صمت، ينظر إلى خَلْفٍ مشتعل بالسكون والموت، فلا يرى شيئا، ويمضي إلى آخر الرؤية.

صبي الماء

حَكَت له الأم عن أخيه الشهيد، وقبضت حفنة من تراب الأرض.

قال الشيخ: "هاك المخلاة، تحمل عظام أجدادنا، وكتباً تؤوي تاريخا، وأيقونات من صبَّارِ الأرض الصدعة".

يملأ الكفَّ بالأشياء، ويرحل إلى أول الثأر، طير صَديّ، هامة تروم السقاية، وعَودَ الأخِ المؤوود غدراً في أرضه، وأجساد الكلمات، يتخذ سبيلاً من بخور الأسلاف، ورائحة الثمار المرسومة في الشجر البعيد.

يُقال إنه سرى من أودية البكاية، وطاف طواف الهامَّة، وهو بَعدُ صبي، وقيل، يوم أن غَادرَ، كان ظُهرٌ رجيم، يحيق بالمدينة المُحاكَة من نسيج كرماد الغيم المنصوب بيوتا، ونصال العُشب الساكن في ظل الأوتاد، ورؤوس الأهلة.

ولما كانت طير سهول الأرض تحل فيهم كل مساء، وما عادت، قيل إنها رحلت معه، تحمل عنه دفق الظهيرة، فيسير في غمر من ظل، يسلك إلى بئر السقاية، يصيح في الموخوزين بالهجير نثارا، وفي الكفوف الملازمة الرحايا، والمقتولين بغير علة أولى.

يتساءل الأسلاف في رحم المخيَّم، والآباء في قيظ الخيام، عن الساري ولا يسألون. يجتاز مدناً وخرائب وأوقاتا، يذكر عمره المشكول خبزا لموتى البارحة وللآتين، وجسدَ الأب المعلَّق في أشجار الشوك المعمولة حدودا، والساكنين غباراً فوق جفنه الصغير.

يناوش ترحاله سراب من نخيل تثمر خياماً لفحتها الشمس، يشيح بقلبه عنها، وبالجسد الرهيف يخطو إلى البئر يستقيها، فيكف عن هامة الأرض ظمأها، ويكون، صبي من ماء، يصير إلى مدائنه، فيما تغزل له الأم خبزَ الرجوع.

شُرفَة [1]

الكرسي الخيزران المحني الظهر، وأمامه المنضدة الدائرية الصغيرة، تغطيها جرائد اليوم، إلا حيث يوجد فنجان القهوة السوداء، وحول الأرجل الخشبية الرفيعة، تتناثر جرائد الصباحات والأماسي الماضية، تتداخل خطوط عناوينها الضخمة، وصورها الضيقة، وحروفها الصغيرة الكثيرة، المطموس بعضها بقطرات القهوة القديمة اليابسة، وبعض مخلفات عصافير اطمأنت إلى هذا العالم الصغير، وحبَّات أرزه، وفتات خبزه الذي ينتظر قدومها من جهة الشمس، التي اعتادت المكان، وألِفَت أشياءه، فسكنت في أطراف الجرائد، وحنيات الخيزران، وفي الخربشات الحية على ذراعي الكرسي، وبضعة أصوات قليلة متشابهة.

---

(1) قصة "شرفة" وما بعدها من قصص من مجموعتي الثانية "غوايات الظل" التي صدرت عام 1991.

وفي الأمسيات الباردة والدافئة، لم يكن يؤنس هذا العالم الصغير سوى مصباح خافت، يضيء للأشياء، وللجسد القابع في كرسيه، كزمن يمضي في صمت.

قصيدة

القمر في السماء بئر ضوء، يفيض بنوره على قبة الليل، فينسكب ضوؤه كخيوط ألم، على الأسرجة المعلقة في جنبات بيوت متهالكة، وعلى حنايا حبات برتقال، ينجذب كقلوب أصحابه إلى أرض غير بعيدة... بعيدة، وعلى خوذات الجنود المنصوبين في أول وآخر الطرقات، وعلى التراب المقدس حيث سار من زمن أنبياء.

نور نهاري رائق، يمر بالدروب، وبين نسائل أوراق خضراء، محروقة الأطراف، يلمع في لحظات الصمت، ويخفت في زخات الدوي الحارث للأفئدة الماضية، عبر نزوات العنف اللاهي، إلى حتفها. وينفرد على الموت المنثور في طرقات المدينة المأسورة، وينطمر في الوهج الفوسفوري المشتعل في فضاءات المدينة المعزولة حتى عن سمائها...

وبانسيابية، يناور النور المرصود، ويفر من الحريق المترصد له ويعبر بليونة الضوء القمري شفافية زجاج الشاعر، القابع في سكون وحدته، المائل على كتب الأسلاف، يخط في لغة الغضب عناقيد حبه للطفل يرضع الدخان المسيل للدموع والشيخ يحمل جسد ابنه الدامي، يواريه الوطن،والأم تحمل وعاء ماء مخلوط بروائح من كانوا معها بالأمس، وما عادوا، ومن سمعوه يرتل فيهم قصائده.

يغمس طرف الريشة في المحبرة، ويرسم الحرف الأول، للكلمة الأولى، في البيت الأخير، حيث يقطن المهمومون، والمطاردون، والمأسورون، والشهداء، وينهض، يرنو عبر زجاج نافذته، وعلى الزجاج، تمتزج ملامح وجهه بدائرة قمر فائر في السماء، يفيض بنوره الرحيم على الدنيا من تحته.

تطمس أنوار هائجة لسيارات عسكرية كل الضوء والملامح، وتخرق الزجاج بوهجها المتأرجح فوق أحجار الدرب الضيق. يعلم وجهتها، يفتح بابه الخشبي العتيق، ويتجه إلى كرسيه، يدفعون صخبهم إلى وحدته، ويرحلون به والأوراق.

وفي الضوء الأبيض الرائق لقمر المساء، ينظر إلى جدران بيوت المدينة السارية، فيلمح حروف قصيدته المكتوبة توا.

مَتْنُ الظِّلِّ

يصعد اليوم، فتُشرف على السبل ظلال، لها مذاق الأسوار، وقوام مزاليج النحاس على أبواب المدائن، توقظ الحركة في شبابيك الأزقة، ودجاجات تفيق في ركن جدار من حجر رطب، وفي غبار الدرب المتثائب تجلس امرأة، تهصر ثديها الصابح، لتقطر في فم وليدها قوت نهاره، وفي مسامعه حكايات الممالك الخلفية، وتواريخ أسوار تُخفي جنودا شُرْساً وأفراسا شَكِسَة، وتحكي عن بقايا خدوش ملوك على هوامش بوابات كانت، ومازالت مسطورة في ضلوع الحارات، تقطف له وردة من نحاس القوس الملكي، وتعلقها على صدره، فتنفتح مداخل الحصون، يسيل بعض من شمس سماء الداخل إلى تراب الطريق، فتتوالى خلفه الأفراس الحائمة، هائجة، تمزق النور الهارب إلى الدرب

المترب، وترجع إلى تترسها.

تلم المرأة أشلاء النور المنثورة، تمسد به صدرها، وتُكمل للوليد حكاياتها.

لَمحَةٌ مُغلَقَة

وما إن يفتح لي الباب، حتى انسرب إلى وجوده، يبَشُّ لي، ويشير، أتجه إلى منتهى إشارته، أراه، على الحائط؛ فارسا، يلوِّح بالنصل الأبيض المخَرمَش الحَدِّ، على صهوة الفرس المهيأ للولوج في طاقة النور، التي تؤطر لمبة الجاز، المعلقة أسفل الغمد، المنتصب في حدة، منقوشا بحروف ملتبسة، تتداخل مع أرابيسك الفرع الملتوي، المخضر في زهو.

كادت حمحمة الفرس أن تطيح باللهب الخافت، المؤرَّق، زرقة تتوالد عن صفرة شاهية، يُلمِح إلى النصل: "له في كل حولٍ ألف رقبة"، وإلى الفارس "وألف امرأة"، "يمنح الأرض الدم، وشعوبا تأتلف من صُلبه". يتسع النور إلى حيث تكون اللمحة، الإشارة.

أسأل: "اسمه؟"

يقول: "له في كل واد اسم، وزمن، ودماء غافلة عن حين تأتلف التراب" .

ويعيدني من تهوامي في دلائل حكايته، وحوله يكون العشب، زهوةٌ تحتمل خلاصة حيوات مرَّت، وأخرى لما تكن، وسلافة حكايات، وطيور طالعة إلى سماء الحائط.

صَهْدٌ عَابِر

شمس الظهيرة تقف على حافة البيت الحجري في أول الشارع الصغير، والدكاكين للشمس بلاد، وللدكان الصغير طعم السر، بلاطات عتبته عالية، تمنع غبار الطريق، وبابه المسكوك يحوش نور النهار عن الدخول، تظل عتمته الوحيدة لها رائحة الحرافة المحترقة، لون السكون، وكثافة الهمس الزاحف على حوائط الدكان الباردة.

الدكاكين للعيال معانٍ، لدكان أم الخير ملمس حدوتة لم تنته، يتسللون في الليل إلى عتبته، يتحسسون الأنحاء المظلمة، كانت تراهم، وعيونهم الصغيرة اللامعة، ودهشتهم، والنور خلفهم، ولا يرونها، تناديهم، يبحثون في الفضاء المبهم، ولا يرونها، يعودون بذهولهم البِكر، ويركضون إلى حيث الشمس، ويحكون لبعضهم البعض عما ظنوا أنهم

رأوه، وتستند واقفة إلى الرُّخامة الباردة، في قلب الدكان، وابتسامة هادئة تكسو وجهها، ومن حولها يعبق المكان بالرائحة الثقيلة، الصاعدة في حدة، من صفائح المخلل المتروسة أسفل البنك الرخامي، ودُكنة احتكاكات ثوبها بالأشياء حولها، وأشباح الأرفف البدائية، وقتامة زجاجات ملفوفة بالسيلوفان المتكسر، لا يمسها إلا العناكب، وأصابعها الدقيقة العجوز، والعابرون ليلا في كونها الرحب الضآلة، يجتازون الصهد الراحل وغروب الشمس، ويسكنون إليها.

كُنْ

في الليل، ناديتها، فلم تُجبني.

أفكر لو أن الشمس تبقى مُوقدة، فأفتحُ لها في الغروب مَكامِني، أُغويها على الدخول، وأحلمُ بنهارٍ لا يتحول أو يستسلم لنهايات الأرض والبحر، ولو أن البيضاء المختمرة بالشال الرخيص السواد تملك جماع مخيلتي، أسمع نَفَسَها يخرج ساخنا إلى وجهي، يقول لي: "وبعدين معاك"، أقول لها: "أحبك"، فتضحك، وتضمني بوهن عجوز إلى صدرها، فأحسه طريا، متهدلا بما يحمله من زمن، يأخذ بي إلى حُلم سفر بعيد، وليس سواي، وكون مقدود من ملاء وجودها.

هل سَوَّلت لي نفسي، يومذاك، أن أراها، المحجوبة في سِترِها، البيضاء المختمِرة، التي لم أرها قط، وأتبعها أينما تذهب. وهل كانت

حكايات الحارة عنها تُخبر بما كنت أرى وأعرفُ، هم لم يعرفوا أبداً، وما كنت لأحَاجِهم فيها، فقط، أسمعُ، وأصمتُ، وأفكرُ لو أن الشمس الآفلة تبقى مُوقَدة، لأرى المحتجبة بالليل يكسوها النور.

وفي الحارة الطويلة، الضيقة، المصفوفة بالدكاكين، وروائح المكْمُونِ في قلبها، المحدودة بالبيوت المركومة الكامدة، المهتاجة في سكون، تجيئ أصواتُهم، عن الواحدةِ من غير رجل، تدور في النهارات والليالي، فتُذهل عنَّا رجالنا، المدنِّسة لمقام شيخنا، راعي الملتاعة، وجابر التائقة إلى الخلاص من زمان وحدتها، وعن شمعاتها الممسوسة، التي لا تخلص أبدا، وهمسهم عن الغائبة في الليل، ورغبتها الآبدة.

وأطوفُ في تفاصيلِ المداخل والدكاكين، في قصَبات الصديريات اللامعة، وروائحِ العطارة، والخيزران، والزجاج، والجلود، وقطع الحلوى، والحروف الناعمة، الساقطة من ثنيَّاتِ حجاب، أبحثُ عنها، أروح إلى ريحِهَا الحارةِ الحائمةِ من حولي ولا ألمحها، فتلوح لِحسّي المضنون به، فأحاول اللحاق بها، وأفلحُ؟ لا أعلم.

وأرمحُ، لا أحمل هماً إلا اجتياز الأماكن، أرومُها، من غير أن تدفع

بي أيدي أصحابها إلى ترابِ الحارة الهامدِ، ومن غير أن يجري العيال ورائي، فلا يدَعُونني إلا بعد أن أحكي لهم عنها.

وأفكرُ في أول المعرفةِ، حينذاك، في النور الوحيد الخارج من طاقةِ أعلى باب المقَامِ الصغير، بين مُنتهى الحارة وأول العالَم، والمساءِ المسكونِ بخرافةِ سلالاتٍ سكنَت المكانَ لحين. وكانت تَبينُ، بدنٌ من زجاج غير منظور، يفيضُ بمادتِه، امرأةٌ من ماءٍ وترابٍ هواءٍ ونارٍ، لا يحدُّ تأرجُحَها الممسوكَ شيء، لِميلانِها بريق الخفْقِ المتماوج على وجه نهرٍ يُوحَى إليه.

أيدرك المجذوب امتزاج الأرض والوحيَ، يخشى أن أحداً يراه، فأختبئُ في العتمة الدافقة، وأشُوفُها، تتمايلُ، وتغني، ويأتيني صوتَ بكاءٍ، وريحَ نعناعٍ مصفًّى، وخيالَ الشيخ القائمِ من مَقامِه إليهَا، يلتحفُ الكُسوةَ الخضراء، المرمُوز عليها شعرا، يحمل لها شالها الأسود في خشوع، ويبكي، يفرشُ الشَّال على الأرض، أمامها، ويلقى عنه ثوبه، فلا يكون شيء، وتُلقي عنها مادَتَها، فلا يكون شيء، ويبدأ الخلقُ يحضرون، يلقون عنهم أرديتهم، فيكونون بخارا رقيقا يتكاثف حولها، فأقول لها "أحبك" من مكمني، فتوحِي إليَّ "اخلع عنك رداءك

وائتني"، فأنفُذُ من العتامة، أُراكِم رَوعِي ووجدي إليها، أخلع عني رداء مادتي، وأصير إلى شالها، وجودا خالصا.

فهرس

ناصر الحلواني، في يقيني، مبدع له باع في ساحة "القصة ـ القصيدة".

قصائده القصصية القصيرة إبداعات بصرية أساسا، هذا القصاص قادر على أن يضفي قيمة بصرية على العبق والنكهة، على الحسي والعضوي، ولكن القيم الجمالية عنده تتبادل المواقع في وقت معا، فيحل اللمس محل الرؤية، والقبض بملء اليدين محل التمعن بالنظر، ولكن الحياد البصري الدقيق عنده إنما ينم عن شغف، بل ولع، بل عشق للأشياء والكائنات.

غموض الحس عنده، وانبهام الأشياء، يشف في النهاية عن تدفق للعضوية والخصوبة المكنونة تحت جفاف، بل تزهد الكلمات، ونسك العبارات.

الواقعي عنده مضفور ضفرا محكما بالحلمي، والسرد القصصي تخامره أنفاس الشعر، واليومي العادي لا ينفصم عن السيريالي.

صوره منمنمة ودقيقة ومضبوطة، في الغالب، على النغمة الصحيحة تمام الصحة، دون اختلال.

عنده لغة تنتمي إلى التصوف إنتماء أصيلا، كما تنبثق من بصر بالعربية، ومعرفة بالشعر.

ومفرداته من مادة العالم منتقاة على نسق مرهف، تتجاوب ألوانه، بعضها مع بعض، بموسيقية خفية.

هو شاعر القصة القصيرة الحداثية.

